



فقاعات من دون دماء هكذا تمت الأحجار مع بعضها خشية أن يسمعها أحد أو ينصل لها بشر، ولكنها تعلم أن الله يعلم السر وأخفي، وما من شيء إلا يسبح بحمده ولكن حتماً لا يفهون تسبيحهم.

عرفت الأحجار فعادت إلى رشدتها وتكلمت ببؤح فلم يعد بالإمكان السكوت والفقاعات تدرج من حولها والطفل الصغير يسبح في إغماء بعد أن رجفت كامل أعضائه وخلاياه دون استثناء.

فقاعات تتمدد وصمت واسع كبير يتخال هذه الجلبة العظيمة، صمت يحتاج الدنيا ويملؤها عيًّا وها هي الملائكة تهُلّ وهي تنزل مسرعة وتعرج قابضة، أصابها من الخوف ما أصابها، لا تدري لماذا فقد جاءها الخبر الغازى بسرعة البرق فتطايرت في الأرجاء وضاقت السماء عليها بما رحبت ثم سارعت كما أمرها الله تعالى فهـي تفعل ما تؤمر بطـيب خاطر وحنان ومحبة القادمين.

بصيص من حياة يتوضأ، بعض خلية في ضمير الصغير البريء تصحو رويداً لتنذكر إلـاماً صوت صفير دوى، ثم انفجار وانفجار، صـحا الطفل الصـغير من نومـه مـذعورـاً وـتكـوـم على نـفـسـه ثم ما لـبـثـ أنـ اـنـطـلـقـ وقد فـقـدـ جـلـ وـعـيـهـ وـهـامـ بـيـنـ الجـدـرـانـ ثم صـمتـ يـعـقـبـهـ سـكـونـ وـرـيـبـ الـمـنـونـ، سـحـابـةـ خـرـقـاءـ تـدـخـلـ مـنـ بـيـنـ الشـقـوقـ وـتـمـشـىـ فـوـقـ سـطـحـ الـأـرـضـ كـوـحـشـ سـارـينـيـ أـجـوـفـ...

هـذاـ الـوـحـشـ الـجـائـمـ فـوـقـ الـأـرـضـ يـغـطـيـ الـدـنـيـاـ، هـيـ زـمـلـاـ، لـاـ إـنـهـ سـوـرـيـاـ، إـنـهـ الـوـطـنـ، فـأـيـنـ مـاـ يـكـوـنـ الـمـوـتـ وـاـحـدـ وـالـمـصـيـبةـ تـكـهـرـ ثـمـ تـجـيـءـ حـبـلـ بـالـمـصـائـبـ وـلـاـ تـذـهـبـ، أـبـدـاـ لـاـ تـذـهـبـ.

وـقـتـهاـ خـيـلـ لـنـائـمـينـ أـنـ غـابـتـ الـمـلـائـكـةـ عـنـ الـمـشـهـدـ سـاعـاتـ وـهـيـ تـلـامـسـ الـغـيـمـاتـ تـنـتـظـرـ اـنـحلـ الـغـازـاتـ وـالـفـقـاعـاتـ، أـرـوـاحـ تـصـعدـ تـتـلـقـفـهاـ الـمـلـائـكـةـ وـأـرـوـاحـ تـتـأـرـجـحـ تـحـاـولـ الـمـلـائـكـةـ إـلـمـسـاـكـ بـهـاـ، أـوـلـيـسـ لـلـمـلـائـكـةـ كـمـامـاتـ لـتـنـزـلـ مـسـرـعـةـ نـحـوـ الـفـقـاعـاتـ.

الـمـسـعـفـ جـالـسـ إـلـىـ جـانـبـ السـائـقـ وـالـسـيـارـةـ فـيـ حـنـقـ مـنـ اـمـتدـادـ الـطـرـيقـ، هـوـ يـذـكـرـ صـوتـ الصـفـيرـ الـأـرـعـنـ مـنـ بـعـدـ ثـمـ انـفـجـارـاتـ مـتـبـاـيـنـةـ، بـعـدـهاـ هـدـأـ الـكـوـنـ مـنـ حـوـلـهاـ لـحـظـاتـ بـلـ سـاعـاتـ وـدـهـورـ ثـمـ جـلـةـ وـكـلـامـ، وـكـلـامـ، وـصـرـاخـ، وـصـرـاخـ وـهـدوـءـ مـمـزـوجـ بـأـنـاثـ وـصـيـحـاتـ اـسـتـغـاثـةـ، وـفـقـاعـاتـ حـمـراءـ لـاـ دـمـ فـيـهاـ وـلـاـ هـوـاءـ، الـمـسـعـفـ فـيـ عـيـنـيـهـ الـوـاجـمـتـينـ دـمـوعـ تـبـرـقـ، تـتـرـقـرـقـ، تـدـرـجـ مـاضـيـةـ إـلـىـ حـضـنـهـ حـيـثـ الطـفـلـ الـمـسـجـىـ فـيـ صـمـتـ وـسـكـونـ قـبـيلـ بـزـوـغـ الـفـجـرـ فـيـ أـجـوـاءـ الـغـوـطـةـ، يـنـظـرـ لـلـأـفـقـ الـدـامـيـ

وأخيلة شجيرات الزيتون على يمينه، تتأرجح بعض الذكريات..

لقد طغوا ويعوا وتمددتْ جذورهم العفنة سياطاً من الخوف تلهم الظهور وقضباناً من الرعب تبعث بين أضلاع الناس، لم يبق في النفوس ذرة حب لما سموه (سورية الأسد)، تباً لهم وسوء مآب، لم يتدفق الانتقام في أوعية الحياة لديهم، كريات حمراء سوداء لا حمراء.

عشش للحد والكرباء الحقير، هؤلاء الذين يقتلون ويدمرون ثم هؤلاء الموالون.

يتنهد المسعف بعمق ثم يمسح أرنبه أنفه بطرف كتفه، ينظر للسائق أن أسرع، ينقل شعاع عينيه نحو الطفل الوديع الساكن في حضنه، وتعود ذكريات قريبة عجيبة، أعلام الثورة ترفرف يمنة وشمالاً، وهتافات تملأ الأجواء (مالنا غيرك يا الله... هي لله هي لله...) وغيرها بما عجّت به الأجواء الحميمية الدافئة والتلاحم العجيب والتلوق إلى النور، كلها متوجة بأكاليل من الغار، فرحة ما بعدها فرحة والناس في نشوة كبرى، في خدر من نفحات حرة.

**نعم أنا في شارع من شوارع سورية أهتف للحرية، أصدع للكرامة، أُلُّمْ هذا أَم مَاذا؟!**

إنجاز لا يضاهى وأي إنجاز أعظم منه عند السوريين، أكبر من الوصول إلى سطح القمر، نعم أكبر وأجل، ومن يعرف ما في هذه النفوس من التلوق والشوق للنور يعلم ذلك فهو أكبر بكثير نعم أكبر بكثير.

لقد بان خيط الفجر في ضواحي الفيحاء، وها هي جُلُّ تمشي إلى مصيرها تحت جنح ظلام على وشك أن يزول، "لا إله إلا الله، وما لنا غيرك يا الله" وهي تمشي إلى بوادر فجرها بعد ربع ساعة أو نيف، لا، ليس الفجر الذي يؤذن له فقط بل إنه النور الكبير.

لا تدري أين يكمن شعاع الأمل رابضاً، في حجم الفقاعات أم في حقد هؤلاء المستجدين للدعة تحت نير الاستبعاد والاستبداد، لا تقل لي أيها المشؤوم إنه الأمان، فلا أمان دون أمن في النفوس وزوال حقد من التائبين الظالمين.

انسللت الروح من الجسد من بين الفقاعات دون ضجة والطفل صامت دون روح تدفأ الجسد، لم يحتمل هز السيارة نحو المشفى الميداني، رهيف وحساس أيها الطفل الوديع كما كل سوري حزّ أبي، لقد مات وهو يمحو عن جسده آثار خطايا البشر، عاد كما كان

ولكن هل بالإمكان أن يعود كما كان، لم يعد بالإمكان أن يكون كما كان، عند أذان الظهر تماماً اجتمع الطهر مع البراءة وتكلفت التلافيف وتمددتْ لتصبح صافية طرية غنية بالسديم الأملس من كل حدب وصوب.

تقاطر باقي المسعفين والبشر الباقيين والأجساد المتلوية والجثث الهامة ملأى بالفقاعات والأطفال هائمون على وجوههم تمضي الدنيا بهم إلى حيث لا تدري ولا تعلم، حتى الأجساد التي ماتت واستشهدت تمضي إلى ما لا تدري في اللحظات الأولى، والمرمرات نحو الأخيرة تعج بالقادمين المسرعين فقد غصت الطرائق السبعة تحت جنح الظلام والفقاعات الداكنة، هناك الأرواح تغص بها المرمرات وأجساد تغص بها الحواري والبيوت، أهو الحشر أما مازا!!

والحشر على الله يسيراً، ألم أن هذه صعبة على البشر مهما كان الإيمان صادقاً، والقلب ينفطر لا محالة من فقاعات دون وهج وأحمرار.

تعبر الأجواء أسراب من الخطايا والسكنون في صمت مطبق، وتعر دون استئذان عربات من الفقاعات ولا أحد يراها، وتهز ذرات الهواء هزاً سريرياً تكاد تنطفئ منه شعلة لم تنطفئ أبداً، وتركض القحط وتموئ من فعل البشر الساكن، وسكت ثم سكت، صمت يشقه صمت، لحظات كالسينين العجاف تتبعها ومضات صغيرة طفولية أضاءت السماء والأرض والبشر تافهون تائهون.

لقد استسلمت للقدر، فاضت الروح الصغيرة الكبيرة إلى بارئها ولحقت بالذين قضوا والملائكة تهلل وتسبيح وتردد "ولا تحسبنَ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءً عند ربِّهم يُرْزَقونَ، فرحيٌّ، فرحيٌّ، فرحيٌّ".

الله أكبر، الله أكبر، وما النصر إلا من عند الله، والله هو الذي يقدر ما هو النصر فحكمة الله بالغة، وصرخ الطفل آخر صرخة وهو يحاول أن يعود ليس حبًّا في الدنيا فقد رأى ما رأى من العناية الربانية ولكن ليوقظ الذين ماتوا في الحياة دون موت وليرى لهم لا لن أعود، لا لن أعود.

المصادر: